الشخصية في خطبة الجهاد للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

الأستاذ الدكتور فليح كريم الركابي

الشخصية عنصر مهم في بناء المجتمع الإنساني لأنها تضطلع بأفعال مختلفة سلبية كانت او إيجابية بحسب الظروف والمؤثرات الخارجية والداخلية و (يجب ان لاننسى ان الشخصية البشرية هي قمة الكون أي أنها أرقى ما خلق الله فهي آخر حلقة في سلسلة تطور الكون حتى الآن ، ولا ندري ماذا سوف يأتي بعدها ، وإذا علمنا ان العلم يقف الآن عاجزاً عن فهم أسرار المادة الجامدة فكيف به في فهم أسرار الشخصية المفكرة)[١] .

ينصب اهتمام هذا البحث على الشخصية الحقيقية المخاطبة مباشرة من لدن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في المجتمع الإسلامي وعلى وجه التحديد المجتمع الكوفي ومن خلاله الى الإنسانية جمعاء في القرن الأول الهجري وبقيت تلك الخطبة تكشف الحجب عن التداعيات المتوالية التي تفاقمت كثيراً في عصرنا هذا وأصبحت مؤشراً خطيراً ومهماً في تركيبة المجتمع لأسباب مختلفة سترد لاحقاً (ان الرأي العلمي السائد الآن هو ان الشخصية البشرية حصيلة التفاعل بين عوامل الوراثة وعوامل البيئة)[٢] .

يبدو ان عوامل الوراثة والبيئة أثرت كثيراً في بناء الشخصية العراقية منذ القدم فجاءت مركبة ومعقدة بسبب الظروف النفسية التي مرت عليها ، فتعاقب الأمواج البشرية على حوض وادي الرافدين منذ العصر السومري حتى اليوم خلقت تركيبات اجتماعية لها مواصفاتها الخاصة و(الذي أميل إليه ان المجتمع العراقي يختلف كثيراً عن المجتمعات الأخرى بصفة خاصة به

.. وهذه الصفة أتت من كون العراقي قد وضع من قديم الزمان تحت وطأة البداوة والحضارة بدرجة متواسقة)[٣] . فضلاً عن ذلك فالحدة والعصبية والعاطفة والرقة ثنائيات تزخر بها تلك الشخصية وهذا ما جعلها تختلف كثيراً بسلوكها الداخلي والخارجي عن المجتمعات الأخرى (وقد أقر فرويد نفسه بان المكبوتات تظهر بأشكال مختلفة كأحلام اليقظة وأحلام النوم والتعبير الفني وأخطاء التعبير)[٤] ، فكان لعن الحكام او قتلهم أمراً مقبولاً ومن ثم التحسر عليهم وذكر مناقبهم وهذه ثنائية أخرى في نفس الشخصية التي خاطبها الإمام اذا ما قلنا تتفرد بها بين المجتمعات البشرية الأخرى بقول الدكتور علي الوردي إني وصفت الرجل العراقي في مناسبة سابقة (بأنه دون جوان تارة وحاج عليوي تارة أخرى)[٥] او (افلاطوني المظهر أبو عليوي الجوهر) .

وقد قال عنهم الإمام علي (عليه السلام) (ينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح) . العامل الآخر خصوبة الأرض وتدفق الجيوش الغازية على مر العصور الى العراق او من خلاله ساهم في بناء شخصية قلقة ترضخ حيناً ثم تثور او تمتلك تفكيراً تدميراً او متخاذلاً في أحيان أخرى يضاف الى ذلك جور الحكام الذين تعاقبوا على حكمه والسلوكيات الدكتاتورية المقيتة التي حكموا الشعب بها الذي كان له الدور الأكبر في خلقها منذ القدم وهناك أمثلة كثيرة تعاقبت من سرجون الاكدي مروراً بالحجاج وانتهاء بصدام والقائمة تطول وما تزال مفتوحة، تلك الدكتاتوريات التي كبلته بقيود ثقيلة من خلال إرادته الضعيفة وحبه للمحكومية القاسية ، فالحرية والديمقراطية لا تعجبه كثيراً بل يتمرد عليها ويرفضها ويحاول ان يبني على أعتابها دكتاتورية يتلذذ بقسوتها وقد قال عن ذلك هاشم جواد (نحن نصنع الدكتاتورية)[٦] فنحن صنعنا الحجاج وصدام وصفقت له الملايين بإرادتها او من دون إرادتها وبعد سقوطه سرعان ما ذابت او اختفت في ليلة وضحاها فالانقلاب والتقلبات والازدواجية وعدم الالتزام بالمبادئ صفات استشرت بين أعضاء المجتمع منذ القدم وما زالت و(يميل علماء الاجتماع الى القول بأن المجتمعات المتحضرة لا تخلوا من ازدواج في الشخصية قليلاً او كثيراً وهم لايستثنون من الازدواج الا المجتمعات البدائية)[٧] ، وذلك ما جسده الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في خطبة الجهاد في ذلك المجتمع

فالنفاق والتخاذل والتخلي عن المبادئ صفات وصم الإمام بها جموع المخاطبين ، الذين يدعون المبدئية أحياناً .

(ان هذه الخطبة كشفت الواقع المزيف المتخم بالخداع والتخاذل الذي كمن في نفوس بعض الناس فكان لغارة الغامدي ردود نفسية ايجابية على أنصار معاوية وشعورهم بالغبطة يقابلها تقاعس جند الخلافة ، وتألم نفس الإمام الذي شعر بالخيبة والإحباط جراء ما حدث)[٨].

لقد استهل الإمام خطبته بأسلوب الترغيب والترهيب ، وان الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة منه ألبسه الله ثوب الذل والهوان وأصبح ديوثاً محتقراً . (وهذه المقدمة لها دواعيها – كما يبدو – فهي كالافتتاح في مقدمة القصيدة العربية لأن تلك المقدمة هي أول ما تقرع السمع بمستهلها)[٩] ، وقد نقلت تجربة الإمام خلال سني عمره ولاسيما حينما كان خليفة (وكان علياً بعد هذه التجارب المريرة وذلك الفراغ الذي يقوم بينه وبين رجاله قد أحس حاجته الى اتخاذ هذه المقدمة الوجيزة يجتذب بها أسماعهم ويصل بها إليهم وينتقل منها الى غايته فأخذ يذكرهم ما كان منه إليهم ويقيم الدليل على خطئهم)[١٠] .

وقد اثر الخطيب استخدام المدلولات اللغوية العميقة التي سيكون لها وقع كبير في نفس المتلقي (فكانت صيغة الماضي المبني للمجهول سائدة في المقدمة حين الحديث عن تارك الجهاد رغبة منه ليزيد الإمام من تحقيره وغيابه على الرغم من حضوره جسدياً)[١١] حين يقول :

(وضُرب على قلبه بالإسهاب وأديل الحق منه بتضييع الجهاد ، وسيم الخسف ، ومنع النصف)[١٢] ، هذا الخطاب المرَّ يوضح مكانة الشخصية المتخاذلة العاصية وما ستؤول عليه في المستقبل والنتائج السلبية التي تنتظرها .

(كانت المقدمة واقعية مفزعة عمادها التقوى والورع وقد برزت من خلالها شخصية الإمام المعهودة في البلاغة والبيان وعبرت عن جزعه ، وتذمره، فكانت مدخلاً شيقاً الى الموضوع وقد ترك الخطيب سامعيه في لهفة بانتظار ما سيقوله بلغة رصينة اقتحمت النفوس بعباراتها القصيرة)[١٣].

تلك المقدمة القاسية عبرت عن شخصية ساخطة متذمرة زادت المتقاعسين قبحاً ونكراً . ان خطاب الإمام علي (عليه السلام) يمتاز

بالتكثيف والإيجاز والاستدراج والتسلسل المنطقي ليكشف لنا خبث وزيف العنصر المقابل فبدأ الحماس والتأنيب يسيران جنباً الى جنب في نفوس السامعين مستعيناً على ذلك بالأدلة والبراهين .

لقد اخضع الإمام ألفاظه الى المفاضلة التي حكمها الى حسه المرهف وذوقه الرائع في تقبيح صورة الشخصية المخاطبة ، ان (علي ابن أبي طالب (عليه السلام) حقيقة ناصعة وظاهرة فريدة في تاريخ الإنسانية فهو رجل المبادئ السامية والمجاهد من اجل إرساء دعائم الحق التي نادى بها الإسلام العظيم) [١٤] ، لذا رفض الدنيا ورفض الخلافة وحين أتته كان كارهاً لها رافضاً كل الرفض لملاذها لأنه رجل مبادئ يتقاطع تماماً مع الدنيا وزيفها والسياسة ومكرها وخداعها فراح ضحيتها . (لقد سجل الإمام صفحات حياته تسجيلاً موثقاً مجسداً معاني التضحية والاستشهاد من اجل تثبيت دعائم دولة الحق ، ان هذا الرجل العظيم تحمل الكثير قبل أيام حكمه وبعدها حين انشق عليه بعض المسلمين وتخاذل الآخرون وحاربه من حارب حتى قضى شهيداً على يد واحد من شذاذ الإسلام)[١٥] .

لقد كان الأداء الصوتي رائعاً وسبباً في كشف صورة الشخصية الحقيقية المتناقضة وكانت ألفاظ الإمام موحية ومعبرة عن الإحباط النفسي الذي عانى كثيراً منه وهو يقابل بين صورتين للشخصية الأولى مجاهدة مثواها الجنة والثانية متخاذلة عقابها النار .

ان الأداء الصوتي يؤدي الى استشراق الصورة في الخطبة ويضيء المعنى ويهيمن على المتلقي ويثير كوامنه كما ان التكرار يزيد من تكثيف الصورة البلاغية ويعكس حالة الانفعال العاطفي القصوى وشدة التوتر في الانفعال المكبوت الذي يتشعب ويصبح من العسير التعبير عنه الا بكلمات مبتسرة .

بعد ذلك الاستعراض الدقيق لواقع الحال للشخصية المخاطبة جاء المقطع الثالث من الخطبة وهو (البرم بالناس) يصورها ادق تصوير حين يقول : (يا أشباه الرجال ولا رجال) ، ان الإمام علي (عليه السلام) استخدم **لا** النافية للجنس أروع استخدام وكيف لا وهو إمام البلاغة والبيان فنفى الرجولة عن الشخصية المخاطبة ولم ينفِ الذكورة إمعاناً في التقريع

والتأنيب ، ومكاشفة المخاطبين بحقيقة أمرهم وهذا الاسلوب جردهم من اعز الاشياء التي يفتخر بها الرجال وهي الرجولة .

الأسلوب الطلبي جاء رائعاً (بياء) النداء التي تفيد التنبيه وكان تحقيرياً يشعر المخاطبين بمكانتهم الاجتماعية المتدنية (يا أشباه الرجال) اعقبه اسلوب طلبي آخر بلا النافية للجنس اشد قسوة وهو نفي الرجولة بالكامل (ولا رجال) .

ان الشخصية المخاطبة وطنت نفسها على عدم الإطاعة واللامبالاة وعدم سماع الرأي الحصيف وانها ركنت الى هواها متجاوزة كل التكاليف الشرعية التي نص عليها الإسلام . وان التبعة تقع على عموم المجتمع المتخاذل الذي لم يدرء هجوم الأعداء ولم يطع الإمام الذي القى عليهم الحجة . بعد هذا المدخل انتقل الإمام الى استنهاض همم الناس الذين تخاذلوا عن الدفاع عن الانبار بوجه جيش معاوية بن أبي سفيان الذي سلب وقتل من قتل ثم عاد دون ان يصاب لهم جندي بأذى . لقد شهدت حياة الإمام صراعاً عنيفاً مع معاوية هو صراع الحق ضد الباطل .

وحذر الإمام من التخاذل والتراجع والرضى بالعيش الذليل قائلاً : (فلو ان امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً ؟ فيا عجباً ! عجباً – والله – يُميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ! فقبحاً لكم وترحاً ، حين صرتم غرضاً يرمى : يغار عليكم ولاتغيرون، وتغزون ولاتغزون).

كان الواقع مراً فالموت أهون من الحياة عند الانسان الحليم وقد صور الإمام أدق تصوير حين اجتماع أولئك القوم على الباطل والتفرق عن الحق، ان الناس المخاطبين لايملكون نظرة معمقة للمستقبل والحياة ولايختلفون شيئاً عن عقول الاطفال او النساء المخدرات اللائي أقصين عن المجتمع لأسباب معروفة فأصبحن معزولات لايعرفن ما يدور حولهن قائلاً: (حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال) بهذا التشبيه الجميل ، صور جموع المخاطبين المتخاذلين إمعاناً في تقبيحهم وتقريعهم ، فلا حلم لهم ولا عقل لهم لأنهم لوح منضود .

وبعد ان كشف معالم هذه الشخصية انبرى يقول (لوددت اني لم أركم ولم أعرفكم معرفة – والله – جرت ندماً وأعقبت سدماً) ، في العامية

العراقية يقولون (ساعة السودة ألشفتكم بيها) فودَّ الإمام انه لم يرَ هذا المجتمع المتناقض المتقاعس عن الحق وقد جاء القسّم جملة اعتراضية بين السبب والنتيجة ، المعرفة المشؤمة ثم الندم ليؤكد صدق قوله وجزعه وذمه لذلك اليوم وذلك اللقاء الذي عرّفه بهؤلاء القوم وتخاذلهم عن حقهم في المعارك المصيرية لا بل لم يكتفوا بذلك فقد كادوا له وقتلوه . ان الإمام علي (عليه السلام) جزع من تقلبات تلك الشخصيات الغريبة فتمنى ان يقاتلهم الله لما فعلوه من مصائب وخذلان وإفساد لرأيه وهو صاحب الرأي والشجاعة .

(قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً ، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً وأفسدتم علي رأي بالعصيان والخذلان) . لقد جرعوا الإمام سموماً وهموماً قاتلة مع كل نفس يتنفسه وافسدوا رأيه بالعصيان والخذلان لقد سئم الإمام (عليه السلام) العيش مع أولئك القوم ورفض تلك الشخصيات الهزيلة سواء أكانت في العراق ام في الحجاز الذين نعتوه بنعوت لاتوجد في شخصه الكريم حين قال (حتى قالت قريش ان ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب) .

يستدرك متعجباً (لله أبوهم ! وهل احد منهم اشد لها مراسا ، وأقدم فيها مقاماً مني) ، لقد جاء ضمير المتكلم في آخر الفقرة ليفاجئ المتلقي بنقرة إيقاعية رائعة . ان الحوار المباشر أعطى الألفاظ دفقاً تعبيرياً وأدانة لتصرفات القوم المتخاذلين ، ويثبت لهم بالحجة القاطعة ان لا رأي لمن لا يطاع .

(لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وها انذا قد ذرّفت على الستين! ولكن لا رأي لمن لا يطاع) ، استدراك رائع فالطاعة يجب ان تتوفر في الشخصية المخاطبة كي تتمكن من استيعاب الرأي الحصيف الذي يمتلكه الإمام صاحب الخبرة والمراس في الحياة .

الشخصية اليوم تهوى العنف والقوة ولو تركت على هواها لأساءت وخربت كما نعيش بعض الحالات في حاضرنا وقرأنا عنها في الماضي فبناء الديمقراطية لا ان يترك على عواهنة بل ان تكون هناك ضوابط مركزية وخوف من السلطة كي تبنى بناءاً صحيحاً ، وان الضبط أساس البناء والالتزام والخوف ولو فرغنا الحياة من هذه المصطلحات لأنفرط العقد.

لقد ألم بالإمام الم نفسي دفين فكان حانقاً في خطبته ناقماً على واقع مرّ ومستقبل أشد مرارة وان ذلك الشعور والروح الثائرة المتحمسة عند الإمام هي دعوة الى مواجهة الخطر ولم يكن الغرض منها الاعتداء على الآخرين بل (إحقاق الحق واستقامة المجتمع وتحقيق السلم والاستقرار) .

لقد كانت صور الإمام صريحة ومباشرة دون خوف او وجل فنحن أمام صورة شعورية واعية تلاشى فيها التمثيل الطقوسي لمشاعر حرى أمام إحساس حقيقي ومواجهة مؤلمة مع قوم هيمن عليهم الذل والهوان .

وختاماً نقول : ان خطبة الجهاد نص مفتوح على العصور كافة في العراق يجسد السلوكيات والأخلاقيات التي أصبحت مهيمناً رئيساً عند عامة الناس على الرغم من ان العراق بلد يمتلك أرثاً حضارياً ضارباً في القدم ويبدو ان الأخيار ينزوون من عنف الأكثرية التي تنعق وراء كل ناعق وتسئ الى حضارة هذا الشعب العريق ، ان خيرة القوم يحجمون ويركنون في بيوتهم أو يهاجرون حفاظاً على أرواحهم وأرواح عوائلهم والخاسر العراق . والحصيلة النهائية ان الإنسان متمرد بطبيعته يحتاج الى قانون وضوابط كي تستقيم الحياة والدولة .

ان الشخصية التي خاطبها الإمام علي (عليه السلام) تعاني الازدواجية في بنائها وتركيبها وبقيت هذه الصفة ملازمة لها وامتدت الى المستقبل وأصبحت أرثاً ثقيلاً لايمكن التخلص منه .

وتبقى الشخصية هي العنصر المهم في بناء المجتمع وينبغي أن تتحرر من تركة الماضي ولاسيما أنها اختلطت بالأمم والشعوب وتطبعت بطباعها وامتزجت حضارتها وثقافتها مع الحضارات الإنسانية لذا يجب أن نرفض الازدواجية كي يستقيم بناء المجتمع .

الهوامش والمصادر

١. علي الوردي يدافع عن نفسه ، حميد المطبعي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١، الشركة العراقية للطباعة الفنية المحدودة ، بغداد ١٩٨٧ ، ص١٣٨ .
٢. المصدر نفسه ، ص١٤٠ .
٣. من وحي الثمانين ، د. علي الوردي ، جمع وتعليق سلام الشماع ، ط٢ ، مؤسسة البلاغ ، بيروت ، ٢٠٠٧م ، ص١٧٧ .
٤. بناء الرواية العربية السورية ، د.سمر روحي الفيصل ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٥م ، ص٧٩ .
٥. من وحي الثمانين ، ص٢٠٠ .
٦. شاهد على العصر ، برنامج يبث من قناة الجزيرة ، شهادة حامد علوان الجبوري ، ٢٠٠٨/٥/٢٤م .
٧. علي الوردي يدافع عن نفسه ، ص١٤٠ .
٨. واقعية الحدث وحيوية المضمون ، خطبة الجهاد للإمام علي (عليه السلام) ، د.فليح كريم الركابي ، مجلة التضامن الإسلامي ، ع٦-٧ ، ٢٠٠٥م ، ص٦١ .
٩. الأسس الجمالية في خطبة الجهاد للإمام علي (عليه السلام) ، د.فليح كريم الركابي ، مجلة الطليعة الأدبية ، ع٣ ، ١٩٩٩م ، ص١٠٨ .
١٠. فن الخطابة وتطوره عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، مؤسسة خليفة للطباعة ، ص٨ .
١١. الأسس الجمالية في خطبة الجهاد ، ص١٠٨ .
١٢. نهج البلاغة (خطبة الجهاد) ، ت . د.صبحي الصالح ، ط١ ، ١٩٦٧م ، ص٦٩ .
١٣. الأسس الجمالية في خطبة الجهاد ، ص١٠٨ .
١٤. واقعية الحدث وحيوية المضمون ، خطبة الجهاد ، ص٦١ .
١٥. المصدر نفسه ، ص٥٨ .